القسم الأول

أعمـــال

باللغة العربية

مدينة الزهراء الملوكية: دراسة تاريخية وأثرية

أ.د. جمال محمد عبدالكريم

أستاذ بقسم اللغة الإسبانية وآدابها - كلية الآداب - جامعة القاهرة

ملخص الدراسة:

مدينة الزهراء هي المدينة العظيمة والعاصمة الملوكية إلى جانب العاصمة الأم "قرطبة"، والتي أمر ببنائها عبدالرحمن الناصر الأندلسي- سنة ٣٢٥ هجريًّا- ٩٣٦ميلاديًّا على سفح جبل العروس، وتبعد كيلومترات من العاصمة. وقد استغرق بناؤها خمسًا وعشرين عامًا حتى تصبح مركزًا يليق بجلال الخلافة. كان يحاط بها القصور والأسوار والمباني الجميلة والأفنية الشاسعة والبساتين والحدائق والتماثيل وكثير من المظاهر الحضارية التي كانت تشعر الأبصار بروعة أشجارها وخضرتها وجمالها وحسن إتقان مبانيها المختلفة والمتعددة بُنِيَ فيها المساجد وشيدت فيها القصور وكان قصر الخليفة الناصر من أكبر القصور فخامة وروعة وجمالاً وأحسنها فنًّا ونظامًا وأعلاها أسوارًا وأوسعها أسواقًا وعمرانًا. ويقال إن هذة المدينة قد سميت هكذا نسبةً إلى واحدة من نسائه المسمَّى "الزهراء"، وتحتل هذه المدينة المقام الأول في تاريخ وتطور الفن الأندلسي- والمعمار في أزهى العصور الذهبية لتاريخ أسبانيا الإسلامية.

Abstract:

Medinat al-Zahraa is a great city and is the royal capital as well as the mother capital " Cordoba ", which was built by Nasser Abdel-Rahman Al-Andalusi year 325 AH - 936 AD at the foot of the Mountain “Al-Aroos”, kilometers away from the capital. The construction took twenty five years to become a center befitting the dignity of Caliphate. It was surrounded by walls and palaces and beautiful buildings and vast courtyards, orchards, gardens, statues and many of the manifestations of civilization that

مدينة الزهراء الملوكية: دراسة تاريخية وأثرية، المجلد الثالث، العدد ١، يناير ٢٠١٤، ص ص٩ – ١٨.

was attracting eyes to their exquisitely, greenery and beautiful trees and the beauty and mastery of its several and different buildings. Many mosques and palaces were built, and the Palace of the Caliph Nasser was the biggest and most luxurious, full of the most magnificent and beautiful art and symmetry, the highest walls and the widest markets. It is said that this city was so named after one of his wives who was called "Zahra", and this city occupies the first place in the history and development of the Andalusian art and architecture at its most golden ages of the history of Islamic Spain.

مدينة "الزهراء" هي المدينة الأندلسية التي بناها الخليفة الأموي "عبدالرحمن الثالث" الملقب بـ"الناصر لدين الله" (٩١٢-٩٦١) بعد إعلان خلافته بقرطبة عاصمة الخلافة الأندلسية الأموية في الغرب الإسلامي، بنيت بعد أن ضاقت هذه المدينة بوفْرة القصور والرياض الشاسعة والعامرة مما يعكسأُبَّهة الملك في إسبانيا الإسلامية في عهد "الناصر" من إعمار وبناء. وقد كان من أبرز ما شهدته الأندلس في مضمار العمران المدني بناء مدينة "الزهراء" الواقعة إلى الشمال الغربي من قرطبة بنحو ثمانية كيلومترات وشمال نهر الوادي الكبير، وجعل القسم الأعلى منها للقصر الخلافي والمملوكي، هذا بجانب زراعته بالأشجار والأزهار كان محاطًا بالبساتين والروضات الخضر في شكل هندسي بديع غاية في الإتقان والروعة والجمال، وأما الجزء الأسفل منه فقد احتوى على المسجد وعلى أبنية عديدة حيث استخدمت كمنازل للخاصة والحَرَس.

بناها "عبدالرحمن الثالث الناصر" عام (٩٣٦م) وجعلها مدرجة، وقد أتاح تشييدها وتدريجها على نحو خاص، وعلى سفح جبل العروس؛ تعبيرًا منه عن حُبِّه لجاريته ومحبوبته وواحدة من نسائه؛ حيث أطلق على هذه المدينة اسمها "الزهراء" ليبقى خالدًا،وتخليدًا لذكراها، وكانت عظمة التشييد والبناء كقصر الضيافة والسكلخاص به ولملكه ودواوينه دليلاً قاطعًا مؤكدًا بذلك عالمية هذا الأثر العظيم الذي يمثل السُّلْطة والحكم المركزي والبراعة الفنية في الوقت نفسه. وقام

بتشييد الأبنية القائمة حول الأبهاء الأربعة الكبرى الواقعة غربي السور الشمالي للمدينة المُحاطة بقصور الزهراء القائمة على سفح الجبل وبخاصة القصر الخلافي.

كانت مدينة الزهراء من أهم الإنجازات التي حققها الخليفة "عبدالرحمن الثالث الناصر" وتبوّأت مكانًا مرموقًا في العالم الإسلامي، وفي الغرب تحتل المقام الأول في تاريخ إسبانيا الإسلامية (الأندلس) من حيث المعمار الهندسي الزخرفي وتطور الفن الأندلسي- الذي بلغ أزهى عصوره؛ حيث أسبغ عليها "الناصر" أروع البناء وضروب الرونق والبهاء، وبخاصة بما تحمله جدرانها من بعض الزخارف الهندسية البديعة بألوانها الزاهية وأعمدتها الضخمة القوية لجمالها وزخرفتها وهندستها المعمارية الفنية وروعة صروحها الزاهية الملوكية وتنسيقها إلي أن أصبحت في غاية الجمال والروعة، وبخاصة أبهاؤها العظيمة ذات الأفنية الشاسعة والأعمدة والقواعد الرخامية والعقود والزخارف الجميلة المكثفة التي تضفي عليها الطراز الخلافي الملوكي الجميل ذا النسق الكلاسيكي الخلاب من طراز عصر- الخلافة والذي عُرف بـ "القوطي" نسبة إلى القوطيين مع الأعمدة والألواح والأحواض البديعة الزخرف والنقوش البارزة، علاوة على العدد الكبير من تماثيلها الرائعة المكونة من البرونز الأسمر الدقيق الزخرف.

ومدينة "الزهراء" هذه تبعُد عن قرطبة بستة كيلو مترات هي من الآثار الأندلسية الخالدة الباقية مثلها قصر- الحمراء Alhambra بغرناطة وجامع قرطبة Mezquita Aljama والقلاع والحصون والقصبات الأندلسية القديمة في إسبانيا الإسلامية، وهي الآثار الباقية في الأندلس حتى هذا اليوم شاهدة على براعة الفن المعماري الأندلسي الذي لبث قرونًا مثوى دولة عظيمة وحضارة إسلامية زاهرة وعامرة بآثارها ومُدُنها وقصورها وأنهارها وصروحها العظيمة التي خلّفتها هذه الأمة الإسلامية الغابرة والتي عاشها المسلمون الإسبان في عزٍّ وشموخ وسؤدد ورضاء تبكي اليومَ على ضياعها وضياع فردوسها المفقود الغابر والماثل أمامنا وأمام المشاهد والسائح العربي والأجنبي، يذكّرنا بهذا الماضي العظيم البعيد وحاضرنا اليوم. ومدينة "الزهراء" مدينة في غاية الجمال حيث كان الخليفة "الناصر" يستقبل فيه السفراء والملوك الأجانب.

كل هذه الآثار تدلُّ وتنبض بمظاهرها الإسلامية القديمة ومجدها العامر الزاهر بطابعها الأندلسي ذي الحسِّ الرفيع والأنيق في كل حماماتها ومساجدها ونقوشها وأحيائها وضيعاتها ودروبها ومناظرها المائية والنهرية العربية القديمة التي تحمل معظمها أسماء عربية ومدنها الأندلسية التي لم تَبْقَ منها اليوم إلا أطلال وبقايا متناثرة هنا وهناك، تحاكي الزمن وتتحدَّى في صمْت على كل ما خلّفه الفن الأندلسي من أثر خالد في طراز كثير من الصروح الإسبانية الأندلسية الماضية كالفن الأندلسي لتكون شاهدًا أمام الأجيال اللاحقة بما كانت عليه حضارتنا؛ حضارة الأندلس والإسلام وما وصلت إليه من مستوى رفيع وفن راقٍ خلاق.

هذا هو الإرث الغالي وتراثُ الأجيال الغابرة وتواصل الأجيال الحاضرة والمقبلة والمتعاقبة لهذا الفن الحيوي المدني والديني في شبه الجزيرة الإيبيرية التي كانت تضم كلاً من إسبانيا والبرتغال ومناطق أخرى من أوروبا؛ مثل جنوب إيطاليا وفرنسا على الأخص.

هذا هو الفردوس العظيم المفقود الذي ما زال ماثلاً أمام أعيننا لم يحافظ عليه العرب والمسلمون بل خربوه هم بأنفسهم والملوك الكاثوليك من بعدهم – حافل بالعبر التاريخية المؤلمة على الرغم من الدروس المستفادة ينبؤنا بكثير من عظمة الماضي وروعة ذلك التراث الأثري المؤثر والحزين تراث الأمة الأندلسية المجيدة. نعم هذا هو فنُّنا وحضارتنا التي تحاكي اليوم نزيف أزمتنا الفكرية والسياسية والاجتماعية في كل البلاد العربية والإسلامية والأندلسية التي تأصَّلت في مجتمعنا العربي والإسلامي والأندلسي على السَّواء.

وباتت كارثة كبرى نعاني منها اليوم دون أن نعرف ما سوف تكون عليه غدًا؛ إذ لم تكن هناك نهضة إنسانية تحمي هذه الآثار التي خلَّفها الدهر والتي هي إرْث إنساني عالمي وتحافظ على مبادئنا الإسلامية والعادات والتقاليد. كل هذا يجعلنا نعترف ونقيم أعمال "عبدالرحمن الناصر" المجيدة الذي يعتبر من أعظم الخلفاء الأمويين قدرًا وعلمًا وسياسة وثقافة وفنًّا في كل العصور الأندلسية، أهَّلته أن يُتوج على أنه أعظم خليفة وشخصيته تنم عن أحاسيسه ومشاعره وقُدْرته على تحمُّل المسئولية الملقاة على عاتقه في حماية أرواح رعاياه محققًا العدالة الاجتماعية لهم وإسعادهم؛ حيث قال عنه

المستشرق الهولندي "دوزي": إنه أقرب إلى حكام العصر الحديث منه إلى ملوك العصور الوسطى، وقال عنه أيضًا الفرنسي "ليفي بروفينسال": إن "عبدالرحمن الناصر" يعتبر بدون شك من أعظم ملوك أوروبا كلها في كل العصور، وأثنى عليه ثناء حسنًا، وزاد فيه مدحًا وقدرًا المؤرخ الشهير "تونبي" واتخذه مثالاً للحاكم المستنير الذي سبق عصره وعصر غيره بمواهبه وحكمته وأخلاقه وفَهْمه لمسئولية الحاكم العادل وواجباته نحو رعاياه وبخاصة الفقراء والمحتاجين.

كان "عبدالرحمن الناصر" يُريد من بناء هذه المدينة أن يجعلها العاصمة الجديدة الحقيقية للأندلس أعظم الآثار التاريخية في الفن والمعمار الأندلسي الإسلامي العربي والإسباني الفريد لتصبح مدينة وعاصمة الخيال والأحلام لفردوس الأندلس الحاضر والمستَقْبل، وقد اختارها في هذا الموقع المتميز خارج مدينة قرطبة، ذي المنظر الرائع والمكان الهادئ الساحر الذي يَسْمح بأن يشيد فيه وفي هذه المدينة الأبنية والقصور الملكية الفخمة وبخاصة قصره الخلافي العظيم المُسمَّى بالقصر.

ويُذكر أن "عبدالرحمن الناصر" استغرق في بنائها - كما ذكر "المقَّري" في كتابه "نفح الطيب" نقلاً عن "ابن حيان" المؤرخ القرطبي الأندلسي خمسًا وعشرين سنة بدءًا من عام (٩٣٦ م). وكان يصرف فيها من الصخر المبخور ستة آلاف صخرة في اليوم. وفي رواية أخرى استغرق في بنائها زُهاء أربعين عامًا لم يدخر جهدًا ولا نفقة في تشييد حاضرته الجديدة مكان إقامته وراحته.

وقد أورد "ابن عذاري" في "البيان المُغْرب" وصفًا دقيقًا لهذه المدينة يدل على رخاء الأندلس وعظمتها والارتقاء بالفنون وقال: إن عدد الديار التي بقَصر الزهراء أربعمائة دار وذلك لسكنى السلطان وحاشيته وأهل بيته، وكان عدد الفتيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبع ومائة وخمسون، وعدد النساء وخدم الخدمة بقصر الزهراء الكبار والصغار ستة آلاف وثلاثمائة امرأة وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل ينقسم من عشرة أرطال للشخص إلى ما دون ذلك؛ منها الدجاج والحجل وصنوف الطير وضروب الحيتان، وقد كان عدد حمَّاماتها ثلاثمائة حمام... وكان عدد أرباض قرطبة في ذلك الوقت ثمانية وعشرين ربضًا، وذكر "ابن عبد الكردبوس" في تاريخ الأندلس أن "الناصر" أنفق في بنائها

خمسة وثمانين مدًّا من الدراهم القاسمية على الرعية وعلى زواملة وزوامل أجناده.

هكذا بنيت مدينة "الزهراء" على أفخم وأجمل مستوى في ضروب الفن بكل مقاييسه وأذواقه الرفيعة، وبخاصة قصره الخاص المبني من الكُتل الحجرية والمكسي ـ جدران قاعته الداخلية من الشظايا الحجرية التي تناسب الزخارف جُدْران هذه المدينة الصُّنَّاع والفنانون ومواد أخرى للإنشاء والعُمْران، وكلها مُزيَّنة بالزخارف المحفورة في الحجر والرخام، هذه هي مدينة الزهراء التي وصفها المستشرق الهولندي "دوزي" بكل دقة وأفاضفي الحديث عنها طويلاً وأغدقها تفاصيل بارعة ومدهشة للغاية تجعلنا نعيش معه في هذه المدينة، مدينة الخيال والحكايات كقصة من قصص ألف ليلة وليلة. ولذلك بلغت كل من قرطبة والزهراء من رقي وجمال ليجعلها من أزهى عصور الأندلس جمعاء؛ وذلك لسحرها الخلاَّق البديع الذي يُذْهل العقول ويسلب القلوب بملامحها الشرقية والأندلسية وبصماتها العربية والإسلامية.

والتي لم يبق منها اليوم للأسف ولحسرة الزمن إلا أطلال هذه المدينة الساحرة كنموذج أيضًا لهذا الفن الأندلسي ـ الذي يحاكي الطبيعة، كما يحاكي هذه المدينة القصر ـ الخلافي الذي بني خصيصًا لـ"زهراء" محبوبته المفضلة؛ حيث أقام بها مكانًا فريدًا للحريم وكان عددهن تبعًا لما ذكره المؤخرون العرب والأوروبيون ستة آلاف وثلاثمائة امرأة، وأربعمائة منزل، وثلاثمائة حمام، وخمسة عشر ألف خادم.

هذا وقد وضع اللَّمسات الفنية على والحرفيُّون العرب المسلمون والمسيحيون وبنوا جدرانها المغطاة بالمرمر الشفاف وقد غُطِّيت أسقُف منازلها بالذهب والفضة.

ولكن من المؤسف أنه في عام (١٠١٠) انقض عليها وافترسها وغزاها المرابطون من البربر القادمين من شمال إفريقية فخربوها وهدموا قصورها وقصور الخليفة مرتكبين بذلك أَفْظع الجرائم، مع ارتكاب جرائم القتل والنهب والسلب، تاركين وراءهم الدمار الذي حل بها، وحولوها إلى أطلال، ولا نرى هذا فقط في مدينة "الزهراء" بل في كل أنحاء إسبانيا اليوم؛ حيث نشاهد هذا الدمار على الرغم من أن البشر والسائحين يشاهدون نموذجًا لهذا الفن في كل هذه الآثار من أسوار وقناطر وقصور وجوامع وبساتين ونافورات وسيراميك وخضرة وأزقَّة وشوارع

وحارات تنبض إحساساً وشعوراً بهذا الماضي وهذا الفردوس الغابر والمفقود. وقد عبَّر عن كل هذا الأديب والشاعر والفقيه والأمير "ابن حزم القرطبي الأندلسي" صاحب المؤلفة الشهيرة "طوق الحمام" وهو كتاب الحب والعاشقين الذي كان شاهداً على أحداث عصره ومحاكاته، معبراً عن حبه لأرضه ووطنه في كلمات رائعة يتحدث فيها عن قرطبة ومدينة "الزهراء"، كما تحدث عنها الجغرافي الشهير "الشريف الإدريسي" ووصف موقع "الزهراء" وأشار إلى صُورها الخلافية التي تقوم في القسم الأعلى من المدينة بينما كانت الدُّور العامَّة والأسواق تقع في القسم الأسفل منها، بحيث تفصل بين القسمين بساتين وروضات.

وعلى الرغم من حديثنا عن "الزهراء" فهي مدينة الأمس واليوم التي تُعد أثُراً من الآثار الإسلامية والأندلسية حتى بأطلالها وأشلائها وتلالها التي تكونت على أطلالها مطمورةَ اليوم تحت التِّلال حيث يضم السور في نطاقه الداخلي أطلالاً أخرى وقصوراً وأكواماً ما يزال بعضها يطوي في أحشائه بقايا كثيرة من منشآت المدينة العتيقة والحزينة في آن واحد، والتي أفرد بحثًا ودراسة مستفيضة جيدة عنها صديقنا العزيز وزميلنا المبجل - الذي فارقنا منذ فترة وجيزة - الأستاذ القدير والمعلم الفاضل الجليل الدكتور "السيد عبدالعزيز سالم"، رحمه الله وأفسح له جناته، تحت عنوان "قرطبة حاضرة الخلافة الأندلسية".

وهكذا بلغ من احتفاء "الناصر" بأبهَّة الملك أن يبني على مقربة من عاصمة ملكه في قرطبة قَصراً أسماه "الزهراء" باسم جارية تمنت أن يبني لها قصراً تكريماً لها فكان هذا القصر الضَّخْم يحمل اسمها وقد استدعى للعمل في بنائه مهرة البنَّائين من بغداد والقسطنطينية، وأجرى فيه المياه وأنشأ حوله الحدائق والبساتين المُفْعَمة برائحة الرياحين والقَرنفل والياسمين بحيث أصبحت "قرطبة" وزهورها مدينة سحرية تخلب الناظرين بجمالها وقصورها؛ حيث نقل إليها "عبدالرحمن الناصر" معاونيه وحاشيته وجُنْده. وبنى هذه المدينة على سفْح جبل العروس المُطلّ على "قرطبة" وتأنق غاية التأنق في تشييد قصره بها وأبهائه كما ذكرنا، وعني عناية خاصة بقصره وبزخرفته وأقواسه وبكل ما يحيط به من روائع الفنِّ الأندلسي.

وجعل لـ"الزهراء" على بوابته تمثالاً جميلاً من المرمر نصبه على باب القصر.

وقد أشرف على بناء هذا القصر عشرة آلاف رجل وثلاثون دابة واستمروا يعملون فيه سنين طويلة وأبهرت مؤرخي العرب في ذلك الزمان؛ فلم يقدروا أن يروا تفاصيله على الحقيقة. فقد زعموا أن له خمسة عشر ألف وأربعة آلاف سارية، والإيوان الأوسط كانت بنايته من المرمر والحجر الشفاف وكانت رؤوسها مُرصَّعة باللؤلؤ وكان جريد سَقْفه من الذهب والفضة، علاوة على المنظر البديع الذي عكسه تدرج "الزهراء" والذي زاده الناصر بهاءً عندما أمر بقطع أشجار السهل التي تطل المدينة عليه، والمشرف على نهر الوادي الكبير، وغرسه تينًا ولوزًا وأشجار البرتقال واللارنج والليمون، ولهذا فقد أصبح المنظر بين السهل والجبل خلابًا وخاصة مع تفتُّح الأزهار.

ومدينة "الزهراء" تحتل المقام الأول في تاريخ إسبانيا الإسلامية الأندلسية؛ حيث تطور الفن الأندلسي ـ والمعمار الفرنسي في أزهى عصوره حيث أَسْبغ عليها "الناصر" أروع البناء وضروب الرونق والبهاء وبخاصَّة بما تحمل جدرانها بعض الزخارف الهندسية البديعة بألوانها الزاهية وأعمدتها الضخمة القوية لجمالها زخرفتها وهندستها -سبحان الخلاق - غاية في الجمال، وبخاصة روعة صروحها الزاهية الملوكية غاية آيات الجلال وبخاصة أبهاؤها العظيمة ذات الأفنية الشَّاسعة المحاطة بالوُرود والأعمدة والقواعد الرُّخامية.

وكان يربط الزهراء بقرطبة طريق يبدأ من باب الهدى شمالي المدينة ويجتاز عددًا من القناطر مارًّا بسَفْح جبل العروس. منتهيًا عند باب يتوسَّط أسوار الجزء العُلْوي من المدينة المخَصَّص للقصر الخلافي.

وهناك طريق آخر يمتدُّ بين قرطبة والجزء السُّفْلي من "الزهراء" يؤدي إلى باب يتوسط أسوار هذا الجزء.

وكانت المياه تنقل إلى مدينة "الزهراء" من أعلى الجبل بعد ٨٠كيلو مترًا عبر قنوات؛مما اقتضى ـ نقْب الجبل بطريقة هندسية رائعة لا تزال آثارها باقية على شكل عيون وينابيع في الجبل، ويبلغ طول "الزهراء" من الشرق إلى الغرب ألفين وسبعمائة ذراع، وعَرْضها من الشمال إلى الجنوب ألف وخمسمائة ذراع، وقد خصص "الناصر" للإنفاق على بنائها ثلث جباية الأندلس كلها؛ حيث ذكر ابن الكردبوس في كتابه (تاريخ الأندلس)" أن ما أنفق على بناء الزهراء خمسة وثمانين مدًّا

من الدراهم القاسمية، سوى ما سخر فيها من الرعية".

ويذكر "المقَّري" في "نفخ الطيب" أن الرخام جلب لبناء "الزهراء" من المرية Almería ورية Reyyo ومن إفريقية والشام والقسطنطينية وغيرها ".

انتقل الخليفة "الناصر" إلى "الزهراء" ونقل إليها دار السكة ودار الصناعة والدواوين، واستقبل فيها السفراء والوافدين من أنحاء الأندلس ومن خارجها. كما استقبل فيها بعض ملوك النصاري الذين تقربوا إليه وخطبوا وُدَّه.

واستخدمت "الزهراء" في عهد "الحكم المستنصر بالله" كمسرح للاحتفالات والأعياد، وقد استقبل فيها ملوك جليقية وقشتالة وغيرهم من الممالك الإسبانية الكاثوليكية . وعندما انفرد "المنصور بن أبي عامر" بالحكم وأمسك بزمام الأمور كلها في الدولة نقل الدواوين من "الزهراء" إلى مدينة أخرى على غ رارها تسمى مدينة "الزهراء " التي بناها وَذلك سنة ٩٨٠م، وأخذت "زهراء الناصر" تَنْحدر منذ ذلك الحين؛ ففي سنة (١٠١٠م) هاجمها البربر ونهبوا كثيراً مما فيها، احتل البربر المدينة ولم يجدوا فيها شيئًا، وفي عام (١٠٢٤م) لم يبق منها إلا الأطلال وكانت الزهراء في عصر المرابطين خرائب وكان بها سكان وهم قليلون. وهي الآن خرائب كما ذكر "عبدالمنعم الحميري" في "الروض المعطار".

وفي عهد المُوحِّدين زارها الخليفة "أبو يوسف يعقوب المنصور" وتأمل أطلالها وأمر باقتلاع ما بقي فيها من أعمدة أُعيد استخدامها في بعض العمائر وتجدر الإشارة إلى أن اندثار الزهراء أبكى كثيراً من الشعراء؛ منهم الصوفي "محيي الدين ابن عربي"الذي قال واصفًا أطلالها:

ديار بأكناف الملاعب تَلْمع

ا م نْ ساكن وَهْيَ بَلْقع

عليها الطَّيرْ من كلِّ جانب

ـمت أحيانًا وحينًا يرجِّعُ

خاطبت منها طائراً متفرِّداً

ـجن في القَلْب وهو مُروَّع

فقُلْت على ماذا تنوح وتشتكي

على دَهْر مضى ليس يَرْجع

وحتى أطراف "الزهراء" اندثرت بمُرور الزمن، فبعد سُقوط قرطبة في يد النصاري الملوك الكاثوليك سنة (١٢٣٦)

من على يد ملك قشتالة "فرندوا الثالث" نهب النصارى الكاثوليك ما تبقَّى من هذه المركزي يتمثَّل في الصَّحْن الذي تتوزَّع الأطلال واستخدموها في بناء الكنائس والأَدْيرة وغيرها، فساهموا في جعلها نسيًا منسيًّا في طيات الزمن.

وقد بلغ اتساع القسم المأهول فيها ١٨٠م طولاً، ٤٠٧م عرضًا على مساحة تعادل ١٢٠ هكتارًا من الأرض.

وقد أسفرت الأبحاث الأثرية قديمًا وحديثًا - في أطلال مدينة "الزهراء" والقصر الخلافي عن كشف بقايا عقود زخرفية من نوع حدوة الفرس، وبنيقات وأشرطة مقوسة، وسنجات حجرية حفرت فيها زخارف من التوريقات قوامها ورقة الأكنش وسعف النخيل الذي يتفق مع الأسلوب الفني لهذه الزخارف ومع أسلوب الزخرفة الموجود بجامع قرطبة أيام "الحكم المستنصر". هذا وقد عثر على قطع حجرية تزدان بزخارف هندسية وطرز من النقوش الكتابية يحمل بعضها اسم خلفائها وحكامها الأمويين. ولا بد من الإشارة هنا إلى البحث الأثري في الزهراء الذي قام به علماء الآثار الإسبان والأوربيين مؤكِّدين أن قصور هذه المدينة تتَّبع نظامين:

- نظام الدَّار التي تقوم حول فراغ مركزي يتمثَّل في الصَّحْن الذي تتوزَّع حوله جميع الغُرف والقاعات.

- والثاني نظام القصر الذي يتألف من بلاطات أو أروقة متوازية، وتفصلها فيما بينها صفوف من العقود القائمة على أعمدة على النَّحْو الذي نشاهده في كل من جامع قرطبة والمسجد الأقصى في بيت المقدس وعدد كبير من المساجد المغربية والأندلسية متأثرًا بنظام المسجد.

- أما النظام الثاني فيرى البروفيسور Elie Lambert أن هذا النظام متأثرا بنظام الكنائس ذات التخطيط البازيليكي.

= = = = = = = = = = = = =

المراجع:

- وليوبدو توريس بالباس، الفن الإسباني الإسلامي في تاريخ إسبانيا تحت إشراف وإدارة رامون مينندت بيدال، مدريد، ١٩٥٧، جـ٥ ٤٢٤، ٤٦٤.
- انظر د.السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢، جـ٢، ص ١٨-٢٥٧.

****